صورة المرأة عند الجاحظ في كتابه الحيوان

د. سناء كامل شعلان
محاضر متفرغ
مركز اللغات/ الجامعة الأردنية
الجامعة الأردنية

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخّص البحث

يعكف هذا البحث على تتبعّ صورة المرأة في كتاب الحيوان للجاحظ، وذلك في عصر اضطلعت المرأة فيه بأدوار اجتماعية وسياسية وثقافية فضلاً عن أدوارها التقليدية، وذلك في عصر يضجّ بالمعطيات والمتناقضات.والبحث يعرض هذه الصور عبر المحاور التالية: صورة المرأة "حوّاء"، وصورة المرأة الإنسان، وصورة المرأة الجارية، وصورة المرأة الزوجة، وصورة المرأة الأم، وصورة المرأة الأخت، وصورة المرأة الابنة، وصورة المرأة المحبّة للجنس، وصورة المرأة الجميلة، وصورة المرأة المجنونة، وصورة المرأة الماكرة، وصورة المرأة الذكيّة، وصورة المرأة الطفلة، وصورة المرأة الزاهدة، وصورة المرأة الكافرة، وصورة المرأة الراوية للحديث، وصورة المرأة الشاعرة، وصورة المرأة الناثرة، وصورة المرأة العالمة، وصورة المرأة الملكة، والصورة السياسية للمرأة، وصورة المرأة الغول، وصورة المرأة الممسوخة، وصورة المرأة مقرونة بالحيوان.

توطئة:

المرأة في العصر العبّاسي:

كانت منزلة المرأة في العصور العبّاسية بصورة عامّة تختلف عن منزلتها في العصور التي سبقتها المتميّزة بصبغتها العربية الأصيلة، وبتمسكها بالشريعة الإسلامية، "ففي العصور العبّاسية تزايد الاختلاط بالعناصر الأجنبية، وتوغّلت الثقافات الفارسية والتركية وغيرها في

الثقافات الإسلامية، فأفضى ذلك إلى تغيير جذري في العادات والتقاليد لا سيما في المجتمع النسائي" (٢). ويمكن أن نرجع ذلك أيضاً إلى تكاثر الجواري والتسرّي بهن؛ فاختلطت دماؤهن بدماء العرب، وكثر نسلهنّ على مختلف المستويات بما في ذلك الطبقات العامة والأرستقراطية. ويؤكّد التوحيدي تكاثرهنّ بقوله: "وأحصينا في بغداد جانب الكرخ ستين وثلاثمائة جارية مغنيّة" (٣)، وأدّى ذلك إلى ارتباط المرأة في تلك العصور بصورة المرأة الجارية؛ فقد "كان لهذا الطغيان على صورة الواقع الحقيقي نتائج خطيرة أخفت معالم الصورة الحقيقية، ولا سيما صورة المرأة الحرّة، والمرأة العاملة، وصورة المرأة الزوجة، والابنة، والأخت". (٤)

ونشير هنا إلى البون الواسع بين نساء الطبقة العامّة، وهنّ الأكثرية والطبقة الأرستقراطية المتمثّلة في نساء الخلفاء وحاشيتهن، وهُنّ الأقلية من حيث التمتّع بالحريّة حتى في فترات الانحلال السّياسي خلال العصور العبّاسية بصورة عامّة، إذ مارست عدد من نساء الخلفاء سلطتهن السياسية كالخيزران، وزبيدة، وقبيحة أم المعتز بالله، وشغب أمّ الخليفة المقتدر بالله. (٥)

ونجد أنّ كتب التاريخ الرسمي العربي قد ركّزت في مجموعها على شهيرات النساء من ملكات، وفقيهات، ومتصوّفات، ومجاهدات، وقيان وأخيراً جوارٍ كان لهنّ في مجالسة الأمراء والخلفاء وتمتيعهم باعٌ وشأن.

وقد شاركت الحرائر والجواري في الحركة الأدبيّة في هذا العصر، وإن ساهمت الحرائر بدور محدود؛ لأنّ "الظروف اقتضت ظهور الجواري في المجتمعات العامة حيث يثبتن أهليتهنّ".(٦)

فقد أوردت المصادر أشعاراً رقيقة لزبيدة زوج الرشيد تدلّ على فصاحة وبيان. وعُرفت عُليَّة بنت المهدي بأنّها شاعرة ومغنّية. "ومن الجواري اللواتي اشتهرن بثقافتهن في العصر العبّاسي تأتي غريب، وفضل، وغيان، وشادية". (٧)

وبلغت مكانة المرأة في القرن الرابع الهجري درجة من الانخفاض عبّر عنها الخوارزمي بقوله في رسالته إلى الرئيس بهراة في التعزية بابنته، التي يعبّر فيها عن روح عصره قائلاً: "لولا ما ذكرته من سترها، وما وقعت عليه من غرائب أمرها لكنت إلى التهنئة أقرب من التعزية، فإنّ ستر

العورات من الحسنات، ودفن البنات من المكرمات، ونحن في زمان إذا حُرم أحدنا فيه الحرمة فقد استكمل النعمة، وإذا زُفّت كريمة إلى القبر فقد بلغ أمنيته من الصهر" (٨). ويُشير فيليب حتى إلى أنّ "المرأة في العصر العبّاسي الأوّل قد تمتّعت بحظ من الحريّة يعادل حظ المرأة الأمويّة، ولكن ما كاد يبسط البويهيون نفوذهم في أواخر القرن العاشر الهجري حتّى حُدَّ من حريتها، وعُزلت عن الرجال، وأحكم عليها الحجاب، ولكن هذا لا يعني أنّ عزلتها كانت تامّة، إذ عُرِفَت عدد من النساء بثقافتهن وعلمهن المشهود بهما من قبل الرجال". (٩)

صورة المرأة "حوّاء":

ويورد الجاحظ في كتابه صورة للمرأة الأصل والنموذج الوجودي، وهي صورة حوّاء، التي تمثل كلّ النساء، كما أنّ النساء يمثّلنها، وهذه الصورة الأصل لجنس النساء تظهر ضمن جدلية الخطيئة والعقاب، وهذه الجدلية مُستقاة من التوراة، ولعلّ الجاحظ أراد من هذا الاستقاء أن يعتق نفسه من تبعيّة اتهام المرأة بصورة نقدية ذاتية، وإلصاق ذلك بواجهة دينية قد تفلح في تبرير معتقداتها أو لا تفلح، ولكن في النهاية يكون الجاحظ في معزل عن وزر الاتهام. وقد يكون الجاحظ في أمره هذا محض مُورد لخبر لم يشأ الدخول في جدلياته، وإنّما اكتفى بإيراده، ولعلّ تسويغ ذلك مردّه إلى نوع الكتاب، وخصوصية مادته التي قد لا تتسع لمثل هذا النقاش.

ويقول الجاحظ: "مكتوب في التوراة أنّ حوّاء عِنْدَ ذلك عُوقِبَتْ بعشر خصالٍ، وأنَّ آدم لمّا أطاع حوّاء وعصى ربّه (١٠) عُوقب بعشر خصال، وأنَّ الحيّة التي دخلها فيها إبليس عُوقِبت أيضاً بعشر خِصال.

وأوّل هذه الخصال التي عُوقِبت بها وجع الافتضاض، ثم الطلق، ثمّ النَّزْع، ثمّ بقناع الرَّأس، وما يصيب الوَحمى، والنّفساء من المكروه، والقَصْر في البيوت، والحيض، وأنّ الرجال هم القوَّامون عليهنَّ، وأن تكون عند الجماع هي الأسفل.

وأمّا خصال آدم صلى الله عليه وسلم: فالذي انتقص من طوله، وبما جعله الله يخاف من الهوامِّ والسِّباع، ونكَد العَيش، وبتوقع الموت، وبسُكنى الأرض، وبالعُرى من ثياب الجنَّة، وبأوجاع أهل الدنيا، وبمقاساة التحفّظ من إبليس، وبالمحاسبة بالظّرف، وبما شاع عليه من اسم العُصاة.

وأمّا الحيّة فإنّها عوقبت بنقص جَناحها، وقطع أرجلها، والمشي على بطنها، وبإعراء جلدها حتى يقال: (أعرى منْ حَيَّة)، وبشق لسانها، ولذلك كلما خافت من القتل أخرجت لسانها لتريهم العقوبة، وبما ألقى عليها من عداوة الناس، وبمخافة الناس، ولجعله لها أوّلَ ملعونٍ من اللحم والدَّم، وبالذي يُنسب إليها من الكذب والظلم" (١١).

ففي هذه الصورة الوحيدة للمرأة الأصل في كتاب الجاحظ يضعنا أمام جدلية الخطيئة والعقاب، ويقرّر من خلال الاستناد على نص ديني أنّ المرأة صاحبة الخطيئة الأولى؛ لذا فقد استوجب العقاب الإلهي الذي ورثته عنها في ما بعد كلّ نساء الأرض.

صورة المرأة الإنسان:

وهذه الصورة لا تستدعي المرأة الإنسان على افتراض أنّها تقدم المرأة إنساناً في إزاء تجريدها من هذه الصورة في باقي الصور، وهذا افتراض مغلوط؛ لأنّ كلّ الصور تقدّم المرأة الإنسان بكلّ تجلياتها، وفي مختلف قطاعاتها، ولكنّني قصدت بكلمة الإنسان المقرونة بالمرأة: أولاً: إنّها صورة مقطوعة عن السياق الاجتماعي، وأبعادها في تكوين البنيتين الداخلية والخارجية للشخصية.

ثانياً: لأنّ الملمح الرئيس لهذه الصورة هو ملمح الرحمة الإنسانية التي تجلّي الإنسان على اعتباره كائن راقٍ لا وحش.

ففي هذه الصورة المرأة إنسان رحيم، يسكن العطف قلبه، وتهش عواطف إنسانيته حتى للحيوانات. فالمرأة تساعد كلباً ليشرب، وفي هذه الصورة ينقل الجاحظ قول "ابن سيرين عن أبي هريرة: "أنّ كلباً مرَّ بامرأةٍ وهو يلهث عند بئر، فنزعت خُفّها، فسقته، فغفر الله تعالى لها". وعنه قال: "غفر الله لبغيّ أو لمؤمنة مرّ بها كلبٌ فنزعت خُفّاً فسقته" (١٢).

صورة المرأة الجارية:

تبرز صورة المرأة الجارية بشكل لافت في مصنفات الجاحظ المختلفة، ولا سيما في مؤلفته: (كتاب القيان)، و(كتاب النساء)، و(كتاب مفاخرة الجوّاري والغلمان). "والمرأة التي يصوّرها الجاحظ في مؤلفاته، والتي يتحدّث عنها في المجتمع المعاصر له، ليست هي المرأة

العربية الحرّة، بل هي المرأة الجارية التي برزت في المجتمع، ولعبت دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية، والسياسية، والأدب، والفن، والغناء، والملذّات" (١٣).

وقد كثر الرقيق في العصر العبّاسي كثرة مفرطة بسبب كثرة مَنْ كانوا يُؤسرون في الحروب، وبسبب انتشار تجارته، ومعروف أنّ الإسلام يقصر الاسترقاق على أسرى الحروب من الأجانب، غير أنّ تجارة الرقيق كانت منتشرة في إيوان وخراسان وما وراءهما وفي الدولة البيزنطية، وعظمت هذه التجارة في الإسلام على مرّ السنين، حتى كان في بغداد شارع خاص بها يُسمى شارع الرقيق، وكان يقوم عليه موظّف يسمّى قيِّم الرقيق (١٤).

وكما أحاطت الرعية نفسها بالجواري والقيان، فقد غصّت قصور الخلفاء بهنّ، بل لقد أثّرنّ على الحياة السياسية في كثير من الأحيان (١٥).

كما أنّ التّجار كان يجلبون معهم من البلدان طرائف السلع والأمتعة والجواري والأحجار والخدم (١٦)، وكان أولئك التّجار يحرصون على امتلاك الجارية الحسناء المتأدبة بفنون الآداب، التي تجيد العزف والغناء، لأنّ ذلك كان يعلي من شأنها في عيني المُشتري، ويزهّد الذهب في سبيل امتلاكها (١٧).

وفي حديث الجاحظ عن الجارية يبدأ بأثر التزاوج بين الأجناس المتباينة من الجواري والرقيق، مما يؤدّي إلى ظهور أجناس جديدة مثل الخُلاسي من الرقيق "وهو الذي يتخلّق بين الحبشي والبيضاء، والعادة من هذا التركيب أنّه يخرج أعظم من أبويه وأقوى من أصليه ومثْمَريه" (١٨). والجاحظ في هذا المقام يدرس هذا التزاوج من وجهة نظر عالم الأحياء، بل ويستعين بمعطيات عالم الحيوان وتزاوجاته في سبيل رصد مثيلاتها الخلاسية في عالم الإنسان.

وفي موقع آخر نجد الجارية التي تُكره على سيد قبيح الوجه فتهرب منه، وترفضه إلى أن تتخلّص منه، وكأنّ الجارية وإن كانت متاعاً يُباع ويُشترى، إلا أنّ مزاجها النفسي يدخل ليوجهها نحو ما تحبّ أو تكره، وفي ذلك ينقل الجاحظ قصة عن قاسم الذي دخل "منزل الخوارزمي النخّاس، فرأى عنده جارية كأنّها جان، وكأنها خُوط بانٍ، وكأنها جَدْل عِنان، وكأنّها الياسمين نَعمةً وبياضاً، فقال لها: "أشتريك يا جارية؟ فقالت: "افتح كيسَك تسرَّ نفسك"، ودخلت الجارية إلى منزل النخّاس، فاشتراها وهي لا تعلم، ومضى إلى المنزل، ودفعها الخوارزمي إلى غُلامه"(١٩). فلما وجدت نفسها في بيته رفضته لدمامته، وسخرت منه، وهربت

منه المرة تلو المرة، دون أن تسعده ولو بقبلة، إلى أن يئس قاسم منها، وباعها إلى غلامٍ أملح منها، "فقامت إليه، فقبّلت فاه، وقاسمٌ ينظر، والقوم يتعجّبون ممّا تهيّأ له، وتهيّأ لها!" (٢٠).

بل إن الجاحظ يورد قصة أخرى لجارية في كتابه الحيوان، تغضب مثلها مثل الحرّة إذا ما نظر رجلها إلى أنثى غيرها، وتسخر منه بلا رحمة، وحتى وإن كان خليفة المسلمين، فقد "خلا معاوية بجاريةٍ له خراسانية، فلمّا همّ بها نظر إلى وصيفةٍ في الدّار، فترك الخرسانية وخلا بالوصيفة ثمّ خرج فقال للخراسانيّة: ما اسم الأسد بالفارسيّة؟ فقالت: كَفْتار، فخرج، وهو يقول: ما الكَفتار؟ فقيل له: الكَفتار الضَبع، فقال: مالها قاتلها الله، أدركَتْ بثأرها! والفُرس إذا استَقبَحت وجه الإنسان قالت: رُوي كَفْتار، أي وجه الضبع" (٢١).

والجارية قد يتعمّق حبُّها في قلب سيدها، فيأنس بقربها، ويجزع أشد الجزع إذا ماتت، فهذا يعقوب بن الربيع يقول في مرثية جاريةٍ كانت له:

حتى إذا فَتَرَ اللِّسان وأصبحَتْ للموتِ قد ذَبَلَتْ ذُبول البَّرجسِ
رجع اليقين مطامِعِي يأساً كما رَجَعَ اليقينُ مطامِعَ المتلمسِّ

ويقول في موقع آخر في رثائها:

لئن كانَ مَربك لي نافعاً لَبُعْدك قد كان أنفعا
لأني أمِنتُ رَزايا الدُّهورِ وإنْ جلَّ خطبٌ فلن أجزَعا (٢٢)

فالجارية في كتاب الحيوان عنصر من المجتمع يتفاعل مع من هم في صيغته الاجتماعية، وعلى قدر مشاربهم الاجتماعية، وقد يقوم بصنع وشائج عاطفية مع الرتبة الأعلى منه اجتماعياً، أي طبقة السادة.

والجارية في كلّ ذلك حالها حال المرأة الحرّة تتزوج وتحبّ وتكره، تعجب وتستقبح، تغضب وتنتقم، وتحلّ في نفس الرجل حبيبةً يجزع كلّ الجزع لرحيلها وفراقها، بل إنّ الرجل قد يستملح من الجارية ما تنفر النفس منه، وتستقبحه الطبائع، كأن يعشق في الجارية صنانها. وفي ذلك يقول الجاحظ: "فأمّا المكي فإنّه تعشّق جارية يقال لها سَنْدَرة، ثم تزوجها نهارية، وقد دعاني إلى منزلها غير مرّة وخبّرني أنّها كانت ذاتَ صُنان، وأنّه كان معجباً بذلك منها، وأنّها

كانت تعالجه بالمرتك، وأنّه نهاها مراراً حتى غضب عليها في ذلك فقال: "فلما عَرَفتْ شهوتي كانت إذا سألتني حاجةً ولم أقضها، قالت: والله لأتمرتكنَّ، ثم والله لأتمرتكنّ، ثم والله لأتمرتكنّ! فلا أجد بداً من أقضى حاجتها" (٢٣).

صورة المرأة الزوجة:

ما يرد في كتاب الحيوان عن العائلة، وعن دور الزوجة فيها إشاراتٌ يسيرة لا تكفي لتكوين صورة ما عن الزوجة وعن علاقاتها بباقي أفراد الأسرة (٢٤).

ويبدو أنّ أهداف الزواج عند الجاحظ كما تستخلص من مؤلفاته هي: (٢٥)

١- "إشباع الغريزة الجنسية التي تغلب على كلّ شهوة، وعلى كلّ متاع في الحياة حتى أنّنا "لو خيّرنا رجلاً بين الفقر أيام حياته، وبين أن يكون ممتعاً بالباه أيام حياته لاختار الفقر الدائم مع التمتع الدائم" (٢٦).

٢- إنجاب الأولاد "فالإنسان يصبو إلى إنجابهم، ويرى في ذلك نعمة من أجلّ النعم؛ لأنّ الولد يُحي ذِكر والده، وبحفظ حرمه، ويقضي ديونه، ويدعو له بعد الموت، ويرث ماله. ولكنّ السبب الرئيسي لطلب الولد هو بقاء النوع، واستجابة الطبع الذي ركبّه الله فيه كما ركّبه في الحمام، والسنانير، والنساء" (٢٧).

وفي كتاب الحيوان لا نستطيع أن نلمس شبكة كاملة للوضع الاجتماعي للمرأة الزوجة في الأسرة العبّاسية، لكننا ندرك فيه قصصاً وشذرات تجعل من الممكن رسم بعض ملامح الزوجة في ذلك العصر.

فالمرأة ابتداءً لها الحرية في رفض الرجل أو قبوله زوجاً لها، بل قد ترفض معشره وهي على فراش الزوجية، وفي ذلك ينقل الجاحظ قصة عن عيسى بن مروان يقول فيها: "وأمّا عيسى بن مروان كاتب أبي مروان عبد الملك بن أبي حمزة فإنّه كان شديد التغزّل، حتى شرب لذلك النبيذ وتظرّف بتقطيع ثيابه، وتغنّى أصواتاً، وحفظ من أحاديث العُشّاق التي تشتهيها النساء وتفهم معانيها. وكان أقبح خلق الله تعالى أنفاً، حتى كان أقبح من الأخنس، ومن الأفطس، والأجدع، فإمّا أن يكون قد تزوج، فلما خلا معها في بيت، وأرادها على ما يريد الرجل من المرأة، امتنعت، فوهب لها، ومنّاها، وأظهر تعشّقها، وأزاغها بكلّ حيلة، فلما لم تجب، قال

لها: خبّريني، ما الذي يمنعك؟ قالت: قبح أنفك وهو يستقبل عيني وقت الحاجة، فلو كان أنفك في قفاك لكان أهون علي! قال لها: جُعلت فِداك! الذي بأنفي ليس خلقةً، وإنمّا هو ضربة ضُربتها في سبيل الله كانت في سبيل الله تعالى. فقالت وقد استغرَبَت ضحكاً: أنا ما أبالي، في سبيل الله كانت أو في سبيل الشيطان، إنّما بي قبحه. فخذ ثوابك على هذه الضربة من الله. أمّا أنا فلا" (٢٨).

وقد تقبل المرأة الرجل الدميم الخلقة، وتفضله على الجميل؛ لفضل ماله، وتترك جميل الطّلعة (٢٩). وقد يثقل على نفس الرجل عظم مهر المرأة، ويجد أنه مهرٌ كبير، ويقول الشعر في ذلك، كقول أبو الطروق في مهر امرأة:

يقولون أصدقها جراداً وضبّةً فقد جرّدت بيتي وبيت عيالیا
وأبقت ضِباباً في الصدور جَواثماً فيالك من دعوى تُصمُّ المنايا
وعاديتُ أعمامي وهم شَرُّ جيرةٍ يُدبُّون شَطْرَ الليل نحوى الأفايا
وقد كان في قبٍ وقوس وإن أشأ من الأقط ما بلغن في المهر حاجيا (٣٠)

فالرجل يستنكر ارتفاع المهر، ويسخر من عظمه، ويقول إنّ أقواماً أخرى على استعدادٍ لتزويجه بمهر لا يكاد يُذكر.

والمرأة الزوجة قد تُطلق في خلافٍ مرّده إلى الإنفاق في عسره أو بحبوحته، فالجاحظ ينقل قصة رجل طلق زوجته؛ لأنّها لا تحسن التدبير، وفي ذلك يقول الجاحظ نقلاً عن الأصمعي: "قال رجلٌ من أهل المدينة لامرأته: لا جزاك الله خيراً، فإنك غير مُرعيةٍ ولا مبقية! قال: لأنا والله أرعى وأبقى من التي كانت قبلي! قال: فأنت طالق إن لم أكن كنتُ آتيها بجرادةٍ، فتطبخ منها أربعة ألوان، وتشوي جنبيها! فرفعته إلى القاضي يفكّر، ويطلب له المخرج، فقال للقاضي: أصلحك الله، أأشكلت عليك المسألة؟ هي طالق عشرين" (٣١).

والمرأة في كتاب الحيوان في شأن إخلاصها في إحدى فئتين: أمّا أن تكون وفيّة تبكي الزوج، وقد ترثيه بالشعر الذي يفيض تفجّعاً(٣٢)، وإمّا أن تكون خائنة، لا تحفظ لعشيرها عهداً، ولا تقضي له وعداً.

وهناك الكثير من المصنفات السردية العربية القديمة التي أكّدت في عدد من محاورها السردية صورة خيانة المرأة وغدرها، وكيد النساء الذي تفوّق، وتغلّب على كيد الرجال(٣٣).

والجاحظ يورد في حيوانه صوراً من هذه الخيانة، فلقمان بن عباد كان قد أُبتلي بأكثر من زوجة قد خانته في نفسها، وكان مصيرهنّ جميعاً القتل على يديه (٣٤).

وفي موضع آخر نجد الزوجة الخائنة تعبث بزوجها، وتخونه، ثم تنجو بكلّ سهولة بفعلتها النكراء، ومن ذلك: "وعدت أعرابية أعرابياً أن يأتيها، فكمن في عشرة كانت بقربهم، فنظر الزوج فرأى شجاً في العشرة، فقال لامرأته: يا هنتاه إنّ انساناً ليُطالعنا من العُشرة، قالت: مَهْ يا شيخ، ذاك جان العُشرة! إليك عني وعن ولدي! قال الشيخ: وعنّى يرحمك الله! قالت: وعن أبيهم إن هو غطّى رأسه ورقد فقال، ونام الشيخ، وجاء الأعرابي، فسفع برجليها، ثم أعطاها حتى رضيت (٣٥).

وبعد،

فالزوجة في الحيوان كائن يلقى الحبّ كما يلقى النفور والرفض، فذاك الشاعر يهجو زوجته قائلاً في وجه من يلومه في ذلك:

لعمــــرُك إن المســــك مــــن أمِّ خالــــدٍ إلــــــي وإنْ ضــــــاجعتها لبغــــــيضُ
إذا بُــــــزَّ عنهــــــا ثوبُهــــــا فكأنّمــــــا علــى الثــوب نمــلٌ عــاذمٌ وبغــوضُ (٣٦)

في حين نجد الأعرابي في موقع آخر يكاد يعبد زوجته لفرط حبّه لها، وفي ذلك يقول:

لــــولا مخافــــة ربِّــــي أن يُعــــاقبني ولأنَّهــــا عِــــدَّةٌ تقضــــي وأوتــــارُ
لقــد جعلــتُ مكــانَ الطــوقِ ذا شــطبٍ وتبْــــتُ بعــــدُ فــــإنّ اللهَ غَفّــــارُ (٣٧)

صورة المرأة الأم:

والأم لها حضور في الحيوان، وهذا الحضور يتنوع بين تقدير، واهتداء بها، ونقد وتحميق، فضلاً عن الهجاء والذم.

فالجاحظ ينعى على الأم التي تؤبّ صغيرها على مآقة، ويتهمها بالجهل، ويستعير في هذا الصدد قول أمّ تأبط شراً التي قالت في ابنها: "والله ما ولدتُه يتناً، ولا سقيته غَيْلاً ولا أبته على مأقة" (٣٨). وأمّا قولها في المآقة، فإنّ الصبي يبكي بكاءً شديداً متعباً موجعاً، فإذا كانت الأم جاهلة حرّكته في المهد حركةً تورثه الدوار، أو نوّمته بأن تضرب يدها على جنبه. ومتى قام الصبي وتلك الفزعة أو اللّوعة أو المكروه قائم في جوفه، ولم يعلّل ببعض ما يلهيه ويضحكه ويسرّه، حتى يكون نومه على سرور، فيسري فيه، ويعمل فيه طباعه، ولا يكون نومه على فزعٍ أو غيظ أو غمٍّ؛ فإن ذلك مما يعمل في الفساد. والأمّ الجاهلة والمرقصّة الخرقاء، إذا لم تعرف فرق ما بين هاتين الحالتين، كثُر منها ذلك الفساد، وترادفَ، وأعان الثاني الأول والثالثُ الثاني حتّى يخرج الصبيّ مائقاً" (٣٩).

والأم هي من ترعى ابنها وترضعه، ومن عجيب أمر المرأة الأم أنّها لا تستطيع أن ترفع لبنها في صدرها إذا كان المقرّب منها غير ولدها، وباقي السباع والبهائم تستطيع ذلك (٤٠).

وقد تلد الأم ابنها بأسنان كاملة، فعندها تجد عنتاً في إرضاعه، ومن الذين وُلدوا بأسنان ثابتة: مالك بن أنس، ومحمد بن عجلان (٤١).

وطول إرضاع المرأة لأبنائها، وتعدّد حملها قد يجعل الرجل ينفر منها، ويهجوها في بعض الأحيان، وفي ذلك يقول أعرابي:

لـــو يعلـــم الغرمـــاء منزلتيهمـــا مـــا خوَّفـــوني بـــالطّلاقِ العاجـــلِ
قـــد مَلَّتـــا وَمَلْلـــت مـــن وجهيهمـــا عجفـــاءُ مرضـــعةٌ وأخـــرى حامـــلُ (٤٢)

وقد تحتال المرأة لنفسها كي لا تحمل، ومن ذلك أن تأخذ شيئاً من نجو الفيل وتخلطه بالعسل فإنها لا تحبل أبداً (٤٣).

والأم في كتاب الحيوان تهتم بأبنائها ضمن معطيات بيئتها، فالأم التي تسكن بالقرب من البحر لا تخشى على ابنها إذا درّج ومشى أن يسقط في البحر (٤٤).

ولكن عندما يمرض الابن أو الابنة، فالأم تسعى بهما في طريق التطبّب. ورووا: "إنّ امرأة أتت إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– فقالت: إنّ ابني هذا، به جنون يصيبه عند الغداء

والعشاء فقال: فمسح النبي –صلى الله عليه وسلم– صدرَه، فمثعَّ ثعة، فخرج من جوفه جروٌ أسود يسعى" (٤٥).

والأم توصي ابنتها، وتقول لها: "وليكن أطيب طيبك الماء" (٤٦)، وزعموا أنّها القائلة لبنتها:

بُنيتـــي إن نـــام نامـــي قبلـــه وأكرمـــي تابعـــه وأهلـــهُ
ولا تكـــوني فـــي الخصـــام مثلـــه فتخصـــميه فتكـــوني بَعْلَـــهُ (٤٧)

وحبُّ الأم لابنها لا يمنعها من أن تهجوه، وأن تسخر من جبنه، فقد قالت عربية في وصف جبن ابنها:

أرى معمـــراً لا زيّـــن الله معمـــراً ولا زانـــهُ مـــن زائـــر يتقـــرَّب
أعادتينـــا عـــاداكَ عِـــزٌّ وذِلـــةٌ كأنّـــك فـــي السِّـــرْبال إذا جئـــت ثعلـــبُ
فلـــم تـــرَ عينـــي زائـــراً مِثـــلَ مَعْمـــر أحـــقَّ بـــأن يُجنَـــى عليـــه ويُضْـــرَبُ (٤٨)

ومن الغريب أن نجد الأم تصارح ابنها بشبقها وتتمنى لو أنّ لها حِرَان ولزوجها أيران كي تتضاعف متعتها، مع أنها كانت قد زادت على النصف، وزوجها ليس إلا فتىً حَدَثَ (٤٩).

صورة المرأة الأخت:

وصورة المرأة الأخت بالكاد تلمح في كتاب الحيوان. وأوّل صورة نلتقطها لها هي صورة الأخت الحمقاء الزانية، وهي أخت لقمان بن عباد.

"وكان قد أُبتلي بأنّ أخته كانت محمقة (٥٠)، وكذلك كان زوجها، فقالتْ لإحدى نساء لقمان: هذه ليلةُ طُهْري، وهي ليلتك، فدعيني أنام في مضجعك، فإنّ لقمان رجلٌ منجب، فعسى أن يقع عليَّ فأنجب. فوقع على أخته، فحملت بِلُقَيم، التي قتلها لقمان، فضرب المثل بقتل لقمان ابنته لُقيماً". (٥١)

وفي موقع آخر يُورد الجاحظ قصة أبي بكر مع ابنته عائشة، إذ قال لها: "إنّي كنت نحلتك سبعين وسقّاً من مالي بالعالية، وإنّك لم تحوزيه، وإنّما هو مال الوارث، وإنّما هو أخواك

وأختاكِ، قالت: ما أعرفُ لي أختاً غيرَ أسماء، قال: إنّه قد أُلقي في رَوعي أنّ ذا بطن بنت خارجة جارية" (٥٢). فعائشة هنا هي تمثيل لصورة الأخت التي يُلقى على كاهلها أمانّة العدلِ في قسمة إرثها من أبيها بينها وبين أختها التي ما تزال جنيناً في أحشاء أمّها.

وفي موقع ثالث وأخير في كتاب الحيوان تكون المرأة الأخت في حاجة إلى عون وحماية أخيها، كي تنجو من تشبيب عمر بن أبي ربيعة بها إنْ صادفها وحيدة في الطّواف، لذلك تطلب من أخيها أن يخرج معها كي يردّ عنها عمر، الذي أعرض عنها بحق. فأنشأت تقول:

تعـدو الـذئاب علـى مـن لا كـلاب لـه وتتقـي حَـوزَةَ المستأسـد الضّـاري (٥٣)

صورة المرأة الابنة:

أمّا صورة الابنة فلا ترد إلاّ في مواضع أربعةٍ في الكتاب، وهي:

أ- في صورة الابنة التي يقتلها لقمان بن عاد؛ لأنّها ابنة سفاح من أخته التي خدعته، واسمها لقيم (٥٤).

ب- في صورة الابنة البارّة التي يوصيها والدها بأن لا تحرم أختها غير الشقيقة من إرثها، وذلك في حديث أبي بكر رضي الله عنه إلى ابنته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها (٥٥).

ج- في صورة الابنة التي تسمع نصيحة الأم التي توصيها بدوام التطيّب بالماء (٥٦).

د- وفي صورة الابنة التي تتردد المرة تلو الأخرى تسأل أمّها عن الطرق التي يمكن أن تسلكها لمضاعفة متعتها الجنسية (٥٧).

صورة المرأة الجميلة:

مدحت العرب الجمال في المرأة، والجاحظ يورد بعض ذلك في كتابه، فيقول: "وقد اجتهدوا في تسمية امرأةٍ بالجمال، والبركة، والحُسن، والصفاء والبياض، قالوا: ماء السماء. وقالوا: المنذر بن مساء السماء" (٥٨).

وفي موضع آخر يشفع الجمال لصاحبته، فيقول الجاحظ كانت روح بن زِنباع أمّ جعفر بنت النّعمان بن بشري، وكان عبدُ الملك زوَّجه إيّاها، وقال: إنّها جاريةٌ حسناء، فأصبر على بذاء لسانها (٥٩).

ومن المثالب التي تنقص من جمال المرأة اللحى والشوارب، "وقد توجد المرأة ذات لحية، وهي ليست بخنثى، بل أنثى تامة" (٦٠).

صورة المرأة المجنونة:

ترد في الكتاب صورة واحدة للمرأة المجنونة، وهي صورة "امرأة من العرب خرفت، فكان هجيِّراها: زوّجوني، زوّجوني! فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لَما لهج به أخو عُكل خيرٌ مما نهجت به صاحبتكم" (٦١).

صورة المرأة الماكرة:

"ترتبط كلمة المرأة عند العرب بالفتنة، وتركز الفلسفة الإسلامية على بيان سلطة الكيد الأسطورية التي تتمتّع بها المرأة، وقوتها الجنسية، وجاذبيتها التي يمكن أن تحدث الفتنة في المجتمع الذي أوجده الله" (٦٢).

ويقول الجاحظ في حق المرأة وفي باب مكرها: "والمرأة إذا ضعفت عن كلّ شيء فزعت إلى الصّراخ؛ التماساً للرحمة، واستجلاباً للغياث من حُماتها وكُفاتها، أو من الحسبة في أمرها" (٦٣).

صورة المرأة الذكيّة:

والمرأة عند الجاحظ قد تتحلّى بالذكاء، وتستعين به على أمور حياتها، وتتوسّل به في توفير سُبل معيشتها، فيذكر الجاحظ مثلاً أنّ امرأة عجوز قد عرضت حاجتها، وشكت من فقرها دون أن تبتذل نفسها، أو تقبل هوان الطلب، وتوسّلت بذكائها في سبيل ذلك، يقول الجاحظ: "ووقفت عجوزٌ على قيس بن سعد، فقالت: أشكو إليك قلّة الجرذان، قال: ما ألطف ما سألت! لأملأن بيتك جرذاناً. تذكر أنّ بيتها قفرٌ من الأدم والمأدوم، فأكثر لها يا غلام من ذلك" (٦٤).

والمرأة تشحذ عقلها، وتجعله قوة تدافع به عن نفسها أمام اللص الذي يهاجم بيتها، وهي وحيدة معزولة: "كانت امرأة متنحية في الحي، وتحبّ العزلة، وكان لها غنم، فطرقها اللصوص، فقالت لابنتها: اخرجي من هاهنا، هاهنا حيّان، والحمارس، وعامر، والحارث، ودراس عنز، وبارق، وراعينا يهمّنا، فلمّا سمعوا ذلك طنّوا أنّ عندها بنيها" (٦٥).

وامرأة أخرى مليحة تردّ على رجل يراودها عن نفسه المرّة تلو الأخرى، فتخبره بجملة قصيرة بلغة ذكية أنّ لا موضع في نفسها لإجابته عما يريد، وأنّها قسمة ونصيب غيره، إذ تقول له: "ما تنظر؟ قرّة عينك، وشيء غيرك" (٦٦).

وقد يهدي الذكاء المرأة إلى طريقة تخلّصها من رجل بالغ في مطاردتها ومراودتها عن نفسها، فتجوز له إحدى الطرق حتى إذا وصلت إلى مجلس القوم صاحت قائلة: "يا هؤلاء، لي طريق ولهذا طريق، ومولاي..(٦٧)، فسلوا هذا ما يريدني" (٦٨).

صورة المرأة الطفلة:

وقد ترد صورة المرأة طفلةً صغيرةً، وهذه الصورة لم ترد في كتاب الحيوان إلاّ مرة واحدة، وذلك: "اجتمع ناسٌ من الشعراء بباب عُدي بن الرقاعِ يريدون مُماتنته ومُساجلته، فخرجت إليهم بنتٌ صغيرة له، وقالت:

تجمّعهم من كُلِّ أدبٍ ومنزل على واحدٍ لا زلتُمُ قرنَ واحد (٦٩)

المحور الثالث
الصورة الدينية للمرأة

صورة المرأة الزاهدة:

لعلَّ في بروز صورة المرأة الزاهدة ما يدلّنا على أنّ المجون لم يكن عاماً بين طبقات المجتمع العبّاسي، فقد أدّت طبيعة التحوّلات الاقتصادية والاجتماعية في هذا المجتمع إلى بروز تغيرات في بنيته الفوقية التي تشمل البُنى الفكرية والسياسية (٧٠).

"كما أنّ الفروق الاجتماعية بين طبقات المجتمع لم تكن فروقاً طفيفة حتى إنّه كان في مقابل الترف والمجون في بعض طوائف وفئات الطبقتين العليا والوسطى حياة يغشى فيها

الفقر والبؤس فئات عامة الشعب من المعوزين، الذين كانت حياتهم تتطلّب ما يفوق قدراتهم الاجتماعية" (٧١).

"وإذا كانت حانات الكرخ ودور النخاسة والمقيمين به اكتظت بالجواري والإماء والقيان والمغنين، فإنّ مساجد بغداد كانت عامرةً بالعُبّاد والنُسّاك وأهل التقوى والصلاح، وكان في كلّ ركن منها حلقة لواعظ يذكّر بالله واليوم الآخر، وما ينتظر الصالحين من النعيم المقيم والعاصين من العذاب والجحيم. وكان من الوعّاظ من يقتحم قصر الخلافة؛ ليعظ الخلفاء"(٧٢).

ولقد كان لبعض النساء كذلك بعض الحلقات الدينية (٧٣)، فالنساء في المجتمع الإسلامي العبّاسي لم يكن كلّهن غارقات في حب الدنيا، ساعيات وراء بريقها، إذ نجد في المقابل نساء أعرضن عن هذا كلّه في عصر اتّسم بمباهج الحضارة وزينتها، وما عرفن إلاّ حبّاً واحداً، هو حبّ الله جلّ وعلا، لا يشغلهنّ سوى عبادته والتقرّب إليه، فتجدهنّ ينفين الدنيا عن قلوبهن وعقولهن، ويلجمن ألسنتهن عن اللّهج بها" (٧٤).

فهذه رابعة القيسيّة الزاهدة المشهورة يُقال لها: "لو أذنتِ لنا كلّمنا قومك فجمعوا لك ثمن خادمٍ، وكان لك في ذلك مَرْفِقٌ، وكفتك الخدمة، وتفرّغت للعبادة. فقالت: والله إني لأستحي أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا، فكيف أسأل الدنيا من لا يملكه؟" (٧٥).

ويذكر الجاحظ طائفة من أسماء "الناسكات المتزهّدات المذكورات في الزهد والرياسة، من نساء الجماعة وأصحاب الأهواء، فمن نساء الجماعة أمّ الدرداء، ومُعاذ العدويّة، ورابعة القيسيّة، ومن نساء الخوارج الشّجاء، وحمادة الصُّفرية، وغزالة الشيبانيّة، وقد قُتلن جميعهن، وصُلبت الشجاء وحماده، وقُتل خالد بن عتّاب غزالة، وكانت امرأة صالح بن مُسرِّح. ومن نساء الغالية الميلاء، وحُمَيدة، وليلى الناعطيّة" (٧٦).

والنساء الزاهدات كما يوردهنّ الجاحظ قادرات على تحمّل أشد أنواع العذاب، ويكفي مثلاً على ذلك الشَّجاء. "عن أبان بن عثمان قال: سمعت أبا هلال في جنازةٍ، وهو يقول: "كلُّ ميتة ظَنُون إلاّ ميتة الشّجاء. قالوا: وما ميتة الشّجاء؟ قال: أخذها زياد فقطع يديها ورجليها، فقيل لها: كيف ترين يا شجاء؟ فقالت: قد شغلني هول المُطَّلع عن بَرْد حديدكم هذا" (٧٧).

صورة المرأة الكافرة:

والمرأة عند الجاحظ في حيوانه ليست مؤمنة صابرة في كلّ الأحوال، بل إنّ من أبرز صورها الدينية صورة المرأة الكافرة التي تناصب الرسول –صلى الله علية وسلم– العداء، وتدسّ له السمّ، وفي ذلك يقول: "وذُكر النبي صلى الله عليه وسلم السمّ الذي كان في الحمل المصلّى، الذي كانت اليهودية إليه فنال منه، فقال: "إنّ تلك الأَكْلَة لتُعادّني" (٧٨).

وفي موضع آخر يُورد الجاحظ قصة امرأة داهمتها الحيات في إحدى رحلاتها دون من معها، فنهشتها، فلم سُئلت جارية لها عن ذلك قالت: "بغت ثلاث مرات، كلّ مرّة تأتي بولدٍ، فإذا وضعَتْه سَجَرت التّنّور، ثم ألقته فيه" (٧٩).

فالكافرة عند الجاحظ ترد في صورة القاتلة، ولعلّ تفسير ذلك مردّه إلى أنّ القتل لا يقل خطيئة عن الكفر، وهو قد يقود إليه، ويُورد إلى النار أسوةً بالكفر، ولا يجرؤ عليه إلاّ كافرٌ جبّار عتي، يستمريء القتل، ويستهين بغضب السماء.

صورة المرأة الراوية للحديث:

ومن أبرز تجلّيات المرأة في الواجهة الدينية هي صورة المرأة الحافظة للحديث، فالمرأة تروي الحديث عن الرسول –صلى الله عليه وسلم– قابل هي رأس السند، وعنها ينقل كبار الصحابة، والجاحظ يورد المرأة "عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها" ناقلة وراوية لحديث الرسول –صلى الله عليه وسلم– وذلك في معرض حديثها عن الوَزَغ. يقول الجاحظ:

"عن مُعاذ عن عائشة قالت: "دخلَ رسول الله –صلى الله علية وسلم– عليَّ وفي يدي عُكّازٌ فيه زُجٌّ، فقال: يا عائشة ما تصنعين بهذا؟ قالت: أقتل به الوَزَغ في بيتي. قال: إن تفعلي فإنّ الدواب كلّها حين ألقي ابراهيم عليه السلام، كانت تُطفيء عنه، وإنّ هذا كان ينفخ عليه، فَصَمّ وبَرِص" (٨٠).

المحور الرابع
الصورة الثقافية للمرأة

صورة المرأة الشاعرة:

تقول سيمون دوبوفوار: "إنّ المرأة ليست مجرّد واقعة بيولوجية، فكي تكون المرأة امرأة فلا بدّ أن يكون لها جسد امرأة، بالإضافة إلى تدخّل عناصر ثقافية وتاريخية" (٨١).

"والثقافة بوصفها مفهوماً شمولياً يحتوي كلّ ما يخصّ سلوك الإنسان، وعاداته، وتصوراته، ومثله، وطقوسه، ومعتقداته، وإنجازاته الماديّة، لا يستطيع أن يفصلها عن الجسد؛ فالثقافة صُنع جسدي" (٨٢).

ومن يطالع مؤلفات الجاحظ يجد كثيراً من السياقات الأدبية التي تربط بين المرأة وبين الحمق والنّوك والعيّ، وتربطها في سياقات أخرى بعقول الصبيان الذين لم يصلوا بعد إلى مستويات التميز العقلي؛ ويعود ذلك إلى كون المرأة حسب رأي الجاحظ: "النساء أضعف من الرجال عقولاً، والصبيان أضعف عقولاً منهم، وهم أبخل من النساء، والنساء أضعفُ عقولاً من الرجال" (٨٣). ويقول في مكان آخر: "وكانوا يعيبون النوك، والعيّ، والحمق، وأخلاق النساء والصبيان" (٨٤).

والغريب أنّ صورة المرأة في كتاب الحيوان لازمت صورة مفارقة للحمق والنّوك، ولم يرد إشارة أو عبارة تدلّ على ذلك، ولعلّ ذلك مردّه إلى الروح الجدلية التي تسكن فكر الجاحظ، فيمدح الأمر في مواقع أو مؤلفات، ويذمّه في أماكن أخرى، فهو يستثمر السّرد الذي يغزوه إلى مرجعيات ومصادر شتّى، ليقلّب الأمر في وجوهه المختلفة (٨٥)، فيذكر مثلاً في بعض مؤلفاته أنّ هناك علاقة بين المرأة والعيّ، وأنّ الله سبحانه ضرب مثلاً لعيّ اللسان ورداءة البيان حين شبّه أحدهم أهله بالنساء والولدان، مع أنّه يمدح عيوب البيان عند المرأة، ولا سيما اللثغاء من الجواري (٨٦)، ثم يورد بعد ذلك صوراً للمرأة الفصيحة الأديبة الشاعرة في كتاب الحيوان.

وقد يقول قائل إنّ ما يفعله الجاحظ في هذا الأمر مردّه إلى أنّ الجاحظ يصدر عن نفسٍ كانت مهتمة بتصوير النفس الإنسانية، ورصد ما فيها من أضداد وتناقضات، فضلاً عن أنّ النماذج البشرية عند الجاحظ أكثر من أن تُحصى، "فلم يترك طبقة إلا تناول أفرادها بالوصف

الدقيق والتحليل النفسي العميق" (٨٧) فليس من الغريب إذن أن يتوقّف عند أكثر من نموذج للمرأة في مؤلفاته؛ وأن يورد نموذجاً للمرأة مثل الشاعرة أو الفصيح ثم يناقده بنموذج آخر يورده في مؤلفٍ آخر.

ففي كتاب الحيوان المرأة نجدها شاعرة تقرض الشعر، وتورد لها الكثير من القطعات الشعرية، ومن ذلك قول الأعرابية:

رأتْ نِضْـــوَ أســـفار أميمـــة شـــاحباً علـــى نضـــو أســـفارٍ فجـــنَّ جنونهـــا

فقالـت: مـن أيَّ النـاس أنـتَ؟ ومـن تَكُـنْ فإنّـــكَ مَـــوْلى فُرقَـــةٍ ومَرينُهـــا (٨٨)

وقالت امرأةٌ من خثعم:

فـــإنْ تســـألوني مَـــنْ أحِـــبُّ فـــإنّني أحِـبُّ، وبيـتِ الله، كعـب بـنَ طـارق (٨٩)

وقالت أخرى:

ومـــا أحســـن الـــدنيا وفـــي الـــدار خالـــدٌ وأقبحهـــــا لمـــــا تَجهـــــزَ غاديـــــا

وقالت أم فروة القطفانيَّة:

فمـــا مـــاءُ مـــزن أيُّ مـــاءٍ تقولُـــهُ تَحَـــدَّرَ مِـــنْ غُـــرٍّ طـــوال الـــذّرائب
بمنعـــــرجٍ أو بطـــــنِ وادٍ تحـــــدّرتْ عليـــه ريـــاح الصّـــيفِ مـــن كـــلّ جانـــب
نَفَـــى نَسَـــم الـــرِّيح القَـــذَا عـــنْ متُونِـــه فمـــا إنْ بـــه عيـــبٌ يكـــون لعائـــبِ
بأطيـــبِ ممـــن يقصُـــرُ الطَّـــرفَ دُونَـــه تُقـى اللهِ واسـتحياء بعـض القواقـب (٩٠)

وقد تكون المرأة الشاعرة عاشقة، وتردّ على حبيبها العاشق بالشعر، وتلومه على هجره لها، وجعلها عرضةً لكلام النّاس، إذ تقول:

وأنـــتَ الـــذي أخلفتنـــي مـــا وَعَـــدْتني وأشـــمتَّ بـــي مـــن كـــان فيـــك يَلـــومُ

وأبرزتنـــي للنّـــاس حتـــى تركتنـــي لهـــم غرضـــاً أرْمـــى وأنـــت ســـليمُ
فلـــو أنّ قـــولاً يكلـــم الجســـمَ قـــد بـــدا بجلـــدي مـــن قـــول الوُشـــاة كُلـــومُ (٩١)

والمـرأة الشـاعرة قـد تصـف أحـوال المعركـة، وتصـف الرجـال مـن قبيلتهـا وقومهـا بالشجاعة، ومن ذلك قول بنت المنذر بن ماء السماء:

بَعـــين أبـــاغَ قاســـمنا المنايـــا فكـــان قســـيمها خيـــر القَســـيم
وقـــالوا فـــارس الهيجـــاء قُلنـــا كـــذلك الـــرمح يكْلَـــفُ بـــالكَريمِ (٩٢)

والمرأة الشاعرة تردّ في الحيوان مدركة لتلك النهاية الحتمية للحياة إلا وهي الموت، فتقول الخنساء:

ترتـــعُ مـــا غَفَلَـــتْ حتـــى إذا ادّكـــرت فإنّمـــا هـــي إقبـــالٌ وإدبـــارٌ (٩٣)

وقد توظّف المرأة الشعر للتنفيس عن رؤيتها الاجتماعية، ومشاكلها الذاتية، بل قد تهجو زوجها، الذي لا تُكن له إعجاباً أو حبّاً، وفي ذلك تقول عصيمة الحنظلية:

كـــأنّ الـــدّار حـــين تكـــون فيهـــا علينـــا حُفْـــرَةٌ ملئـــت دُخانـــا
فليتـــك فـــي سَـــفين بنـــي عبـــادٍ فنصـــبحَ لا نَـــراك ولا ترانـــا
فلـــو أنّ البُـــدور قَـــبْلنَ يومـــاً لقـــد أعطيتُهـــا مائـــة هِجانـــا (٩٤)

وقالت امرأة من بني ضبة لزوجها:

تـــراه أهـــوجَ ملعونـــاً خليقتُـــه يمشـــي علـــى مِثْـــل معـــوجِّ العـــراجين
ومـــا دعـــوتُ عليـــه قـــطُّ ألعنُـــه إلاّ وآخَـــرُ يَتلُـــوهُ بـــآمينِ
فليتـــه كـــان أرض الـــرُّوم منزلـــه وأنّنـــي قبلـــه صُـــيِّرت بالصِّـــينِ (٩٥)

وقالت جمرة الأزديّة لزوجها أبي وائل:

لعمـــرك مـــا إن أبـــو وائـــل إذا ذُكِـــرَ القـــومُ بالطائـــلِ

فيـــــاليتني لـــــم أكـــــن عِرْسَـــــه وعوجِلْـــــتُ بالحَـــــدث العاجـــــلِ (٩٦)

وإذا ما طلق الرجل امرأته الكارهة له، نجدها تسعد لذلك، وتترنّم بالشّعر قائلة:

لَليْلَتـــــى حـــــين بِـــــتُّ طالقـــــةً ألـــــذُّ عِنْـــــدي مِـــــنْ لَيلـــــة العُـــــرسِ (٩٧)

صورة المرأة الناثرة:

والمرأة لا تقول الشعر وحسب كما ترد عند الجاحظ، بل هي ناثرة جيدة تجيد التشبيه والكلام. فها هي امرأةٌ قد نظرت "إلى عليّ، والزبير، وطلحة، رضي الله عنهم، وقد اختَلَفتْ أعناق دوابّهم حين التقوا، فقالت: من هذا الذي كأنّه أرْقَم يتلمّظ؟ قيل لها الزُّبير. قالت: فمن هذا الذي كأنّه كُسِرَ ثم جُبر؟ قيل لها: عليّ. قالت: فمن هذا كأنّ وجهه دينارٌ هِرَقْليّ؟ قيل لها: طلحة" (٩٨).

ونجد المرأة تحسن أن تنتقم لنفسها بالكلام، وتجيد أن تكيل لعدوها بالبلاغة، فالتغلبية تقول للجحّاف في وقعة البشر: "فضَّ اللهُ فاك وأعماك، وأطال سُهادَك، وأقلَّ رُقادك، فوَالله إنْ قتلت إلاّ نساءً أعاليهنَّ ثِدِيٌّ، وأسافِلهُنَّ دُميً!! فقال كمنْ حَولَه: لولا أن تَلِدَ هَذه مثلها لخلَّيتُ سَبيلَها! فبلغ ذلك الحسن، فقال: أمَّا الجَحَّاف فجذوة من نارِ جهنَّم (٩٩).

صورة المرأة العالمة:

والمرأة العالمة لا تردّ بصورتها العلمية البحثية التي تنقّب وتدرس وتستخلص؛ لتخرج بنتائج وفرضيات وتعميمات، وإنَّما هي امرأة تدرك ما حولها بوعيٍ، وتصدر عن معرفتها بشؤون ومعطيات وخبرات حياتها وبيئتها. فهي تعرف مثلاً النجوم، وتجيد ترقّبها، تعرف أسماءها ومواقعها وتهتدي بها، وعندما تُسأل عن ذلك تقول: "سبحانَ الله! أمَا أعرف أشباحاً عليَّ كلَّ ليلة وقوفاً"(١٠٠).

وقد تكون المرأة عارفةً بالطبّ أو بعلاج بعض الأمراض، تجيد علاجها، وتحفظ طريقة ذلك، ويسرد الجاحظ علينا قصة في ذلك إذ يقول: "كان الأسود بن أوس بن الحمَّرة، أتى

النجاشي ومعه امرأته، وهي بنت الحارث أحد بني عاصم بن عبيد بن ثعلبة، فقال النجاشي: لأعطينك شيئاً يُشفي من داء الكلب. فأقبل حتى إذا كان ببعض الطريق أتاه الموت، فأوصى امرأته أن تتزوّج ابنه قدامة بن الأسود، وأن تعلِّمه دواء الكلب؛ ولا يخرج ذلك منهم إلى أحد، فتزوجته نكاح مقت، وعلّمته دواء الكلب، فهو إلى اليوم فيهم، فولَدَ الأسودُ قدامةَ، وولد قُدامةَ المِحلَّ –وأمُّه بنت الحارث، فكان المِحلُّ يُداوي من الكلب (١٠١).

المحور الخامس

صورة المرأة الملكة:

والمرأة ترد بصورة الملكة في أكثر من موضع في كتاب الحيوان، فتُذكر الملكة سبأ التي كانت تعبد الشمس دون الله، وقد أوصل الهدهد خبرها إلى سليمان عليه السلام(١٠٢).

وقد تكون المرأة ابنة ملك، فيضنَّ عليها بالزواج على من يراه غير كفؤ لها. فالملك النعمان بن المنذر يرفض أن يزوّج أيَّ ابنة من بناته إلى الملك كسرى أبرويز، فيكون ذلك سبباً في قتله (١٠٣).

وقد تتحوّل بنات الملوك إلى خادمات في قصور الملوك الأقوى، فعن ملك الصين ينقُل الجاحظ قول عبد الملك بن عمير أنّه وجد في رقعةٍ في ديوان معاوية –بعد موته– أنّ ملك الصين كانت تخدمه ألف جارية من بنات الملوك (١٠٤). ونعجب إذ يورد الجاحظ لنا خبراً إنّ ملكاً مثل النعمان بن المنذر يتزوج مومساً مشهورة بذلك، ويجعل منها ملكة، ويعرض عن هجاء الناس له بسبب ذلك (١٠٥).

الصورة السياسية للمرأة:

والمرأة كما يوردها الجاحظ في كتابه ليست مقطوعة بأي شكل من الأشكال عن الواقع السياسي الذي يحيط بها، ولا غرو في ذلك، فهي جزء من الواقع. فالمرأة تراقب الأوضاع، وتفهمها بل قد تثور كذلك عليها، وتكافح السلطة كفاحاً مستميتاً لا يعرف هوادة. وقد ذكر الجاحظ طائفة من أسماء أولئك النساء الخارجات على الدولة. ومنهن: من نساء الخوارج: الشّجاء، وحمادة الصّفرية، وغزالة الشيبانية، وقد قُتلن جميعاً في حروب طوائفهن مع الدولة، ومن نساء الغالية: الميلاء وحُميدَة، وليلى الناعطيّة (١٠٦).

ونجد أولئك النساء الثائرات قد صبرن حتى في وجه التعذيب والتنكيل في سبيل معتقداتهن.

فهذا زياد بن أبيه يأخذ الشّجاء الخارجية، ويقطع يديها ورجليها وهي حيّة، ويسألها عمّا رأت فتقول: "قد شغلني هول المُطَّلع عن بَرْد حديدكم هذا" (١٠٧).

وفي صورة أخرى للمرأة السياسية نجد المرأة وهي هنا عائشة أم المؤمنين تتخذ موقفاً من فئة من الصحابة، وتنحاز إلى فئة أخرى، بل تخرج في المعركة على جملها إلى جانب الصف الذي تنحاز إليه (١٠٨).

وقد تصدر المرأة في مواقفها السياسية عن حبّها للرجل الذي يكون سجنه بسبب السياسة. فهذا الكميت بن زيد يُسجن عند خالد بن عبد الله، وكانت امرأته تختلف إليه في ثيابٍ وهيئة، حتّى عَرفها البَّوابون، فلبس يوماً ثيابها، وخرج عليهم (١٠٩).

المحور السادس
الصورة العجائبية للمرأة

صورة المرأة الغول:

يقدّم الجاحظ في كتابه الحيوان مادة طويلة في الجزء السادس تحديداً إلى جانب الشذرات المتفرّقة في باقي أجزاء الكتاب عن المرأة الغول. والغول كائن خرافي يفوق الإنسان في قوّته وقدرته، والغول تشكّل من تشكّلات الجن (١١٠)، وهي إذا لم تتغوّل سمّيت السّعلاة (١١١).

وقد ملأت قصص الغوله التراث الشعبي، وغدت مصدراً للرعب في القصص الشعبيّة، كما أنّ كتب الأدب والخرافات تزخر بقصص الحبّ والزواج التي شجرت بين الإنس والغول (١١٢).

وقد يتساءل سائل ما سبب إدراج الغول في هذه البحث؟ وما علاقتها بالبحث؟ ثم كيف يمكن أن يتورّط كاتب عُرف بسعة مداركه العقليّة، واعتزال مذهبه في الكتابة عن أمور خرافية ليس لها مكان في الواقع، وإنّما هي نسيج الخيال الشعبي؟

والإجابة عن السؤال الأول تكون من كتاب الحيوان ذاته، فالجاحظ يعدّ الغول امرأة أو بالتحديد من جنس الإناث، وهي ليست من جنس الحيوان، بل هي جنّ مصوَّر على شكل مزيج من المرأة مع بعض صفات الحيوان، لا سيما التوحّش، وفي ذلك يقول: "والغول اسم لكلّ شيء من الجنّ يعرض للسفّار، ويتكوّن في ضروب الصّور والثياب، ذكراً كان أو أنثى، إلاّ أنّ أكثر كلامهم على أنّه أنثى" (١١٣). وإن كان الأمر كذلك، فاعتقد أنّه يجوز لي أن أعدّ الغول من الصّور العجائبية للمرأة في أدب الجاحظ في كتابه الحيوان.

وقبولنا لهذه الصورة العجائبية يجعل لزاماً علينا أن نبحث عن قوانين جديدة للطبيعة، يمكن تفسّر وجود الغول بها، فنحن نعلم أنّ لا وجود ضمن قوانين طبيعتنا لكائن اسمه الغول، وهذا ما يدخل الغول في الصورة العجائبية؛ "فوجود الكائنات فوق الطبيعة الأقوى من الجنس البشري أحد ثوابت الأدب العجائبي". (١١٤) "فالأدب العجائبي يتحدّد إذا قرّر القارىء أنّه ينبغي قبول قوانين جديدة للطبيعة، يمكن تفسير الظواهر بها (١١٥) وهذا بخلاف الأدب الغرائبي الذي يتحدّد "إذا قرّر القاريء أنّ قوانين الواقع (الطبيعة) تظلّ سليمة، وتسمح بتفسير الظواهر الموصوفة" (١١٦).

فأننا نجد مثلاً امرأة تنبت لها لحية في كتاب الحيوان، وهو أمر غريب، ولكنّه يمكن أن يخضع لقوانين طبيعتنا، أمّا أن نسمع عن وجود كائن خرافي مثل الغول، فهو أمرٌ خارجٌ عن حقائق طبيعتنا، ويصبح ذكره أمرٌ فنتازي، ولا غرو في ذلك؛ "فالفنتازيا غالباً ما تقترن بتصورات ومفاهيم مغلوطة مضلّلة أو بحقائق غير واقعية" (١١٧).

ونحن عندما نقرأ عن الغول نشعر للوهلة الأولى بالعجب أمام هذا الكائن الخارق، ثم نشعر بالتردّد في قبول وتصديق ما نسمع، وحين نستقر على قرار مفاده أنّنا أمام شيء يخالف قوانين طبيعتنا نكون قد دخلنا في العجيب أو العجائبي (١١٨).

وكثيراً ما يتداخل السرد الغرائبي والعجائبي في النص الواحد، ويصبح إيقاف كلّ منها عند تخوم واضحة أمراً صعباً يحتاج إلى مهارة، ودقة وقدرة على التأويل وجمع شتات الظواهر والأحداث، وردّها إلى الواقع واللاواقع (١١٩). وهذا ما نراه في كتاب الحيوان في معرض حديث الجاحظ عن الغول وعن علاقاته بالبشر.

وهذا كله يقودنا إلى السؤال الثاني المفترض في هذه الصورة من البحث، فأنّى للجاحظ أن يتورّط في مثل هذه الصورة العجائبية؟ وهو يكتب كتاباً يجمع مادته، ويقدّمها بآليات علمية تجريبية أو وصفية، لا سيما أنّ "عقل الجاحظ كان قوياً قلّ أن يقبل الأوهام، بل يهزأ ممن يقبلها، ويعتمد على التجربة، ويبني على وقفها الأحكام" (١٢٠).

وإخال أنّ الجواب هو في نفس منهج الكتاب، فالجاحظ قد ضمن كتابه مواضيع ثقافية ولغوية ونقدية وتاريخية، وجمع من شتى فنون الأدب، والأدب العجائبي يندرج تحت دثار فلك الفنون والعلوم، بوصفه شكل من أشكال التشكّل الأدبي، وهذا التشكّل الفنتازي يمكن أن يحتمل "تقديم الأسطورة ومقاطع السريالية والميثولوجيا والفلوكلور والقصص الطوبوية ورؤى الأحلام والخيال، وكلّ ما يقارب هذه الأنواع له علاقة بالبشر" (١٢١).

فالجاحظ يجمع مادة أدبيّة، ويدرجها في كتابه، وإن كانت عن كائن خرافي، لكنّها تبقى في النهاية مادة أدبية تستحق الجمع، لا سيما في مزجها بين الكائنات البشرية، وما يرافقها من قوى في بوتقة الحدث الفانتازي وبين الغول وبين الكائن الخرافي، فقد أراد أن يُرضي ذوق الشعب "الذي يتوق إلى سماع الأعاجيب، وهو يميل إلى تصديق ما يمكن أن يحسن القاصّ تصويره له، ولقد أشبع القاصّ في شعبه هذه الرغبة بما يمكن أن يتقبّلوه" (١٢٢).

ومردّ ذلك كلّه إلى طبيعة العقل التي تظّل الشعوب حافظة لميزاتها الساذجة وسط صخب المدينة، ولعل السّحر في هذه القصص هي تلك السذاجة التي تنمّ عن طفولة العقل (١٢٣).

"والغول اسم لكلّ شيء من الجنّ يعرض للسَّفّار، ويتلوّن في ضروب الصّور والثياب، ذكراً كان أو أنثى، إلاّ أنّ أكثر كلامهم على أنّه أنثى" (١٢٤). "والسِّعلاة اسم الواحدة من نساء الجنّ إذا لم تتغوّل لتفتن السُّفار، وقالوا إنّما هذا منها على العبث، أو لعلّها تفزع إنسان، فتغيّر عقله، فتداخله من ذلك" (١٢٥).

"والعرب إذا رأوا المرأة حديدة الطّرف والذِّهن، سريعة الحركة، كشوفه ممحّصة، قالوا: سعلان، وقال الأعشى:

ورجـــالٍ قَتْلـــى بجنبـــي أربـــكٍ ونســـاء كـــأنهنَّ السَّـــعالي (١٢٦)

وقد يقع الزواج بين الغول والآدمي، فالعرب تزعم أنّ عمرو بن يربوع قد تزوّج السِّعلاة ، وذكر أبو زيد أنّ رجلاً من الأعراب تزوّج السِّعلاة، وأنّها كانت عنده زماناً، وولدت منه، حتى رأت ليلة برقاً على بلاد السِّعالي، فطارت إليهن، فقال:

رأى بَرْقـــاً فأوْضَـــعَ فـــوقَ بَسْـــكَر فـــلا بـــك مـــا أســـال مـــا أغامـــا (١٢٧)

ومن هذا النتاج المشترك، وهذا الخلق المركّب عندهم، بنو السِّعلاة، من بني عمرو بن يربوع، وبلقيس ملكةِ سبأ، وتأوّلوا قول الشاعر:

لا هـــمّ إنّ جُرْهُمـــاً عِبـــاد كمـــا النّـــاسُ طِـــرْفٌ وهُـــم بلاّدُكـــا (١٢٨)

"والعامّة تزعم أنّ الغول تتصوّر في أحسن صورة إلاّ أنّه لا بد أن تكون رِجلها رجلَ حمارٍ، وتزعم كذلك أنّ شقّ عين الشيطان بالطول" (١٢٩).

وزعم الجاحظ أنّ العرب كانت تستعيذ من الجنّ، "وزعم ابن الأعرابي قال: دعا أعرابيٌّ ربه، فقال: "اللهم إني أعوذ بك من عفاريت الجن! اللهم لا تشركهم في ولدي، ولا جسدي، ولا دمي، ولا مالي، ولا تدخلهم في بيتي، ولا تجعلهم شركاء في شيء من أمر الدنيا والآخرة" (١٣٠).

والجنّ قد تقتل الإنسان، مثلما قتلتْ قرداس بن أبي عامر، وأبا عبّاس بن مرداس، وقتلت الغريض خنقاً بعد أن غنّى بالغناء الذي كانوا نهوه عنه، وقتلت كذلك سعد بن عبادة بن زُكيم (١٣١).

وقد يعشق الجنّ الإنسان، فقد استهوت الجنّ عمرو بن عديٍّ اللخمي الملك ، كما استهوا عمارة بن الوليد بن المغيرة (١٣٢).

وهم يزعمون أنّ المجنون إذا صرعته الجنيّة، وأنّ المجنونة إذا صرعها الجنّي –أنّ ذلك إنّما هو عن طريق العشق والهوى، وشهوة النّكاح، وأنَّ الشيطان يعشق المرأة منا، وأن نظرته إليها من طريق العجب بها أشدّ عليها من حُمّى أيام، وأنّ عين الجان أشدُّ من عين الإنسان (١٣٣).

والغول تموت كما تزعم العامة إذا ضُربت ضربة واحدة، إلاّ أن يُعيد عليها الضارب قبل أن تقضي ضربة واحدة، فإنّه إن فعل ذلك لم تمت. وقال الشاعر في ذلك:

فثنيّـــت والمقـــدارُ يخـــرس أهْلَـــهُ فليـت يمينـي قبـل ذلـك شُـلّتِ (١٣٤)

صورة المرأة الممسوخة:

ومن الصور العجائبية التي يوردها الجاحظ في كتاب الحيوان للمرأة، هي صورة المرأة التي مُسخت إلى حيوان أو جماد لذنب اقترفته.

والإمتساخ لغة: "تحويل صورة إلى صورة أقبح منها؛ وفي التهذيب: تحويل خلقه إلى صورة أخرى، مسخه الله قرداً يمسخه، وهو مَسْخ ومسيخ، وكذلك المشوّه الخلق، وهو كذلك قلب الخلقة من شيء إلى شيء" (١٣٥).

والامتساخ ضرب من ضروب العجائبية التي لا تقبل التفسير ضمن قوانين طبيعتنا، وإنّما هي صورة من التراث الشعبي والأسطوري الذي قد يتقاطع مع الموروث الديني عند الشعوب.

فيزعم الجاحظ أنّ الإرْبيانة كانت خيّاطة تسرق السُلوك، وأنّها مسخت، وترك عليها بعض خيوطها؛ لتكون علامة عليها، ودليلاً على جنس سرقتها. وأنّ الفأرة كانت طحَّانة (١٣٦).

كما ينقل عن الرب زعمهم أنّ الزُهرة امرأة كانت بغيّاً، فمسخت نجماً، وكان اسمها (أناهيد) (١٣٧).

المحور السابع
صورة المرأة مقرونة بالحيوان

كتاب الحيوان ألّفه صاحبه أصلاً في علم الحيوان وطبائعه وصفاته، لكن ثقافة الجاحظ أضفت عليه صبغةً خاصة، فقد جمع إلى جانب علم الحيوان مادّة ثرية ومتنوعة في كثير من دروب المعرفة مثل السياسة والحديث وعلم القرآن وعلم واللغة والنحو والصرف وأيام العرب والأخبار والتراجم والطرف والأساطير والسير، وكان في ذلك الرصيد الثقافي الفني جانب يتناول المرأة.

وإن كان الجاحظ في كثير من مواضعه جاء مقطوعاً عن سياق الحديث عن الحيوان، إلا أن الجاحظ لم يقطع الوشائج بين الموضوعين، أعني المرأة والحيوان، وربط بين عالميها في أكثر من موضع وقصة، فعائشة رضي الله عنها تقتل الوزغ بعكاز فيه زُج، والرسول –عليه الصلاة والسلام– لا ينهاها عن ذلك، بل يذكّر أنّه الحيوان الوحيد الذي كان ينفخ على النار التي ألقي فيها ابراهيم عليه السلام، فصمّ وبرص لذلك (١٣٨).

وكانت تقول عائشة رضي الله عنها: "سمعت سعداً يقول: "أمر رسول الله عليه السلام بقتله" (١٣٩).

وقد يكون الحيوان هو معلّم المرأة في بعض الأمور، فالجاحظ يذكر أنّ أحدهم قد تزوج من جارية دفعته عن نفسها حتى يئس منها، ثم إنّه استشار إحدى العجائز في أمرها، فأشارت عليه أن يعزلها عن الآخرين، ويحبسها في غرفتها، وأن يضع أمامها زوجين من الحمام الذي من ديدنه أن يتبادل الحبّ، ويتناغى بالأنس.

وينفّذ الرجل ما قالته المرأة العجوز، وباتت الزوجة المدبرة عن زوجها تتأمل طوال وقتها في سلوك زوج الحمام، وتتدبر في عشقه، وتحنّ إلى تقليده، إلى أن أقبلت على زوجها، وسارت باللطف والأنس معه على وَفْق ما رأت من سلوك الحمام مع إلفه (١٤٠).

وقد تشبّه المرأة في بعض أحوالها بنوع أو بآخر من الحيوان، فالمرأة السمينة إذا كانت غير خرّاجة طوّافة شبّهت بالقطاة، وفي ذلك يقول ابن ميّادة:

إذا الطِّوال سَدَوْنَ المشي في خَطَلٍ قامت تريك قَوَاماً غير ذي أوَدِ
تمشي ككُدريّة في الجَوّ فاردة تُهْدي سُروب قطاً يَشْرِبْنَ بالثّمد (١٤١)

وقد تكون رؤية الحيوان أو الطائر في الحلم إشارة إلى دخول المرأة أو وجودها في حياة الرجل. فيروي الجاحظ أنّ أحدهم رأى في مناسبة أنّه يُسقِط أعظمَ صومعةٍ بالمدينة غرابٌ. فقال سعيد بن المسيّب في تفسير ذلك: يتزوّج أفسق الفاسقين امرأة من أهل المدينة. فلم يلبثوا أيّاماً حتى كان ذلك (١٤٢).

وينقل في رواية أخرى من الأصمعي قوله: "أخبرني رجلٌ من أهل البصرة قال: أرسلَ شيخ من ثقيفٍ ابنة فلاناً –ولم يحفظ اسمه– إلى ابن سيرين، فكلّمه بكلام، وأمّ ابنه هذا

قاعدةٌ، ولا يظنّ أنّها تفطِنُ، فقال له: يا بني اذهبْ إلى ابن سيرين، فقل له: رجلٌ رأى أنّ له نعامة تطحن، قال: فقلت له: هذا رجلٌ اشترى جاريةً، فخبأها في بني حنيفة، قال: فجئت أبي فأخبرته، فنافرته أمي، وما زالت به حتى اعترف أنّ له جارية في بني حنيفة" (١٤٣).

وقد تلجأ المرأة إلى عالم الحيوان؛ لتأخذ منه بعض ما تيسّر به معاشها، فالنساء إذا شربت من نجو الفيل بعد أن تخلطه بالعسل فإنها لا تحبل أبداً (١٤٤).

وفي موضع آخر يقارن الجاحظ بين بعض خصائص الحيوان وخصائص المرأة، فذكر على سبيل المثال أنّ السباع والبهائم تستطيع أن تدفع لبنها، وأن ترسله عند حضور الولد، والمرأة لا تقدر أن تدرّ على ولدها وترفع لبنها في صدرها إذا كان ذلك المُقرَّبُ منها غير ولدِها (١٤٥).

الخاتمة:

وقد خلصت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج، هي:

١- يبدو أنّ الجاحظ في رسمه لصورة المرأة في كتاب الحيوان قد كان انتقائياً في هذا الرسم، فاختار نماذجَ نسائية أحتاج إليها في نسق حديثه للاستدلال أو التفريع على ما يقول، واستبعد الصور التي لم يجد حاجته إليها، ووجد مندوحة عن ذكرها؛ لذا تغيب الكثير من الصور النسائية عن هذا الكتاب، مثل: صورة المرأة الفارسة، المرأة الكريمة، المرأة البخيلة، المرأة الساحرة، المرأة الغيور، المرأة الحمقاء، المرأة الكاهنة.

٢- كثيراً ما تتداخل الصور النسائية في الكتاب، فنجد المرأة شاعرة وأم وحبيبة، ونجد العالمة زوجة وزوجة أبّ، ونجد الجارية جميلة أو خائنة، وهذا التداخل مردّه إلى أنّ المرأة كيان اجتماعي متداخل، وليس جزءاً جامداً محدّد الزوايا والأبعاد، ولعلّ هذا الأمر نقطة تعدّ في رصيد الجاحظ، فهو يلتقط الصور الاجتماعية بعوالقها ضمن أنساقها، ويوظّفها في سرديات كتابه دونَ أن يقتلعها من بيئتها ونسقها الاجتماعي.

٣- والجاحظ في عرضه للصور الاجتماعية للمرأة يورد في كثير من الأوقات الصور ونقيضها، فيورد المرأة الخائنة والمرأة الوفية، المرأة المؤمنة والمرأة الكافرة، .. الخ. وقد يورد الصورة ولا يورد نقيضها، فمثلاً: يورد صورة المرأة الفصيحة، ولا يورد صورة المرأة غير الفصيحة،

صاحبة العيّ، وأظن أن مردّ ذلك إلى أن الكتاب ليس سِفراً لرصد صور المرأة، بل ذِكْرُها يَأتي فيه ضمن نسق معلوماته، وليس قصداً مطلوباً لذاته.

٤- نستطيع وفق الحكايات والصور الواردة للمرأة في كتاب الحيوان أن نرسم صورة ولو جزئية عن وضع المرأة في المجتمع العبّاسي، وإن كانت هذه الصور غير كافية لرسم صورة كاملة عن صورة ذلك المجتمع بما يقطع الشكّ باليقين.

٥- والمتتبع لعدد تكرارات الصور النسائية في الكتاب يلحظ كثافة في التكرار عند بعض الصّور كما في صورة المرأة الجارية والمرأة الراغبة في الجنس، ولعلّ ذلك مردّه إلى تأثّر الجاحظ بصور نسائية محدّدة، غزت المجتمع بفعل معطياته وظروفه، وطغت على سطح أحداثه وعلاقاته وسرده.

الهوامش:

١. حسن حسني: ثنائية الجنس أم ثنائية الفكر، ٣٥.
٢. جرجي زيدان: تاريخ التمدّن الإسلامي، ج٥، ٧٧؛ وضحا محمد الحلاحلة: صورة المرأة في شعر العصر العباسي الثاني في العراق، أطروحة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٨٨، ١-٢٢.
٣. التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ١٨٣.
٤. وديعة طه النجم: أضواء على منزلة المرأة في العصر العبّاسي، عالم الفكر، مجلد ١٨، ع١، الكويت، ١٩٨٧، ٢٢١.
٥. لمزيد عن ملامح المجتمع العبّاسي انظر: ملامح المجتمع في عصر الجاحظ، محمد عبد المنعم خفاجي، ١٩-٤١.
٦. المسعودي: مروج الذهب، ج٣، ٤١٥.
٧. سائدة أحمد سلاّم: المرأة في الأدب النثري في العراق في العصر العباسي الأوّل، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمّان، الأردن، ١٩٨٨.
٨. الخوارزمي: رسائل الخوارزمي، ١٣.
٩. فيليب حتّي وآخرون: تاريخ العرب (مطوّل)، ج٢، ٤١٠.

١٠. يقصد بذلك عصيان أوامر الله عزّ وجل والأكل من الشجرة المحرّمة، وذلك في باب (عقاب حوّاء وآدم والحيّة).

١١. الجاحظ: الحيوان، ج٤، ١٩٩.

١٢. نفسه، ج٢، ١٥٢.

١٣. وديعة طه النجم: الجاحظ والحاضرة العبّاسيّة، ١١٩.

١٤. شوقي ضيف: العصر العبّاسي الأوّل، ٥٦.

١٥. انظر : سعيد أبو العينين: حكايات الجواري في قصور الخلفاء، ١٥-٤٥؛ الجاحظ: رسائل الجاحظ، كتاب القيان، تحقيق عبد السلام هارون، ج٢، ١٥٧.

١٦. انظر: محمد عويس: المجتمع العبّاسي من خلال كتابات الجاحظ، ١٢٤، ١٤٨.

١٧. شوقي ضيف: العصر العبّاسي الأوّل، ٥٦-٥٩.

١٨. الجاحظ: الحيوان، ج١، ١٥٧.

١٩. نفسه، ج٦، ٢٦٥.

٢٠. نفسه، ج٦، ٤٥٢.

٢١. نفسه، ج٦، ٥٠٤.

٢٢. نفسه، ج٦، ٥٠٥.

٢٣. نفسه، ج٥، ٤٦٨.

٢٤. ضياء الكعبي: صورة المرأة في السرد العربي القديم، أطروحة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٩، ٣٢.

٢٥. نفسه: ٣٢.

٢٦. الجاحظ: كتاب النساء، الرسائل الكلامية ٩٧-٩٩.

٢٧. الجاحظ: الحيوان، ج١، ٦٢-٦٣.

٢٨. نفسه، ج٦، ٢٦٣-٢٦٤.

٢٩. نفسه: ج٣، ٥٢٤.

٣٠. نفسه، ج٦، ٩٣.

٣١. نفسه، ج٥، ٥٦٧.

٣٢. نفسه، ج١، ٦٤.
٣٣. ضياء الكعبي: صورة المرأة في السرد العربي القديم، أطروحة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٩، ٥٠.
٣٤. الجاحظ: الحيوان، ج١، ٢١١.
٣٥. نفسه، ج٦، ١٦٩.
٣٦. نفسه، ج٧، ١٦٠.
٣٧. نفسه: ج٧، ١٦١
٣٨. نفسه، ج١٦، ٢٨٦، يتيناً: خرج رأس المولود قبل جسده.
٣٩. نفسه، ج١، ٢٨٧.
٤٠. نفسه، ج٧، ٤٤.
٤١. نفسه، ج٧، ١٢٤.
٤٢. نفسه، ج٧، ١٦٠.
٤٣. نفسه، ج٧، ٨٦.
٤٤. نفسه، ج٧، ٢٥.
٤٥. نفسه، ج٦، ٢٢٥.
٤٦. نفسه، ج٥، ١٣٨.
٤٧. نفسه، ج٥، ١٣٨-١٣٩.
٤٨. نفسه، ج٦، ٣٠٨-٣٠٩.
٤٩. نفسه، ج٦، ٧٥.
٥٠. محمقة: تلد الحمقى.
٥١. الجاحظ: الحيوان، ج١، ٢١.
٥٢. نفسه، ج٦، ٥٠-٥١.
٥٣. نفسه، ج٢، ٨٣.
٥٤. نفسه، ج١، ٢١.
٥٥. نفسه، ج٦، ٥٠-٥١.

٥٦. نفسه، ج٥، ١٣٨.

٥٧. نفسه، ج٧، ٢٣٧-٢٣٩.

٥٨. نفسه، ج٥، ١٤١.

٥٩. نفسه، ج١، ٢٢٦.

٦٠. نفسه، ج١، ١١٥.

٦١. نفسه، ج٥، ٥٨٧.

٦٢. ضياء الكعبي: صورة المرأة في السرد العربي القديم، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٩، ٦٢.

٦٣. الجاحظ: البيان والتبيين، ج٦، ٣٧٩.

٦٤. الجاحظ: الحيوان، ج٥، ٢٥٧.

٦٥. نفسه، ج١، ٤٠٦.

٦٦. نفسه، ج٦، ٢٦٠.

٦٧. كلمة بذيئة حذفتها لذلك.

٦٨. الجاحظ: الحيوان، ج٦، ٢٦١.

٦٩. نفسه، ج٢، ٦٤.

٧٠. ضياء الكعبي: صورة المرأة في السّرد العربي القديم، دراسة في كتب الجاحظ والأغاني والسّير الشعبية العربية، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٩، ٥٧.

٧١. محمد عويس: المجتمع العبّاسي من خلال كتابات الجاحظ، ٤١١.

٧٢. شوقي ضيف: العصر العباسي الأوّل، ٨٤.

٧٣. الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، ٣٣٧.

٧٤. سائدة أحمد سلاّم: المرأة في الأدب النثري في العراق في العصر العبّاسي الأوّل، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمّان، ١٩٨٨.

٧٥. الجاحظ: الحيوان، ج٥، ٥٨٩.

٧٦. نفسه، ج٥، ٥٦٠.

٧٧. نفسه، ج٥، ٥٨٩.

٧٨. نفسه، ج٤، ٢٤٩.
٧٩. نفسه، ج٤، ٢٥١.
٨٠. نفسه، ج٤، ٢٨٧.
٨١. سيمون دوبوفوار: الجنس الآخر، ١٦.
٨٢. مطاع صفدي: الجسد الذاتي، الفكر العربي المعاصر، ع٥٠-٥١، بيروت، آذار، ١٩٨٥، ٥.
٨٣. الجاحظ: رسالة فخر السودان على للل، رسائل الجاحظ السياسية، ٥٤٠.
٨٤. الجاحظ: البيان والتبيين، مجلد ١، ٢٠٥.
٨٥. ضياء الكعبي: صورة المرأة في السرد العربي القديم، ٢٢٠.
٨٦. الجاحظ: البيان والتبيين، م١، ١٣٧.
٨٧. سامي الكيالي: النفس الإنسانية في أدب الجاحظ، ٣٢.
٨٨. الجاحظ: الحيوان، ج٣، ٥٣.
٨٩. نفسه، ج٣، ٥٤.
٩٠. نفسه، ج٣، ٥٤.
٩١. نفسه، ج٣، ٥٥.
٩٢. نفسه، ج٦، ٤٢٢.
٩٣. نفسه، ج٦، ٥٠٧.
٩٤. نفسه، ج٧، ١٦٢.
٩٥. نفسه، ج٧، ١٦٢.
٩٦. نفسه، ج٧، ١٦٣.
٩٧. نفسه، ج٧، ١٦١.
٩٨. نفسه، ج٤٧، ٢٥٢.
٩٩. نفسه، ج١، ٢٤.
١٠٠. نفسه، ج٦، ٣١، ونكاح المقت أن يتزوج الرجل امرأة أبيه بعد موته.
١٠١. نفسه، ج٢، ١١.

١٠٢. نفسه، ج٤، ٥٨.
١٠٣. نفسه، ج٤، ٤٧٦.
١٠٤. نفسه، ج٧، ١١٣.
١٠٥. نفسه، ج٤، ٣٧٥.
١٠٦. نفسه، ج٥، ٥٨٩.
١٠٧. نفسه، ج٥، ٥٨٩.
١٠٨. نفسه، ج٥، ٣١٧.
١٠٩. نفسه، ج٢، ٣٦٤.
١١٠. نفسه، ج٦، ٢٦.
١١١. نفسه، ج٦، ٤٧.
١١٢. نفسه، ج١، ٢٠٣.
١١٣. نفسه، ج٦، ١٥٨.
١١٤. تزفيتان تودوروف: مدخل إلى الأدب العجائبي، ١٠٩.
١١٥. نفسه، ٤٩.
١١٦. نفسه، ٤٩.
١١٧. ت.ي. أيتر: أدب الفنتازيا، ٦.
١١٨. لطيف زيتوني: معجم مصطلحات الرواية، ٨٧.
١١٩. سناء شعلان: السرد الغرائبي والعجائبي في الرواية والقصة القصيرة في الأردن، ٢٩
١٢٠. محمد عبد المنعم خفاجي: أبو عثمان الجاحظ، ١٦٧.
121. Rosmary: Jakson, Fantasy, The literacy of obversion, me thuem, London
١٢٢. سهير القلماوي: ألف ليلة وليلة، ٢٢٤.
١٢٣. نفسه، ج٦، ٢٢٣.
١٢٤. نفسه، ج٦، ١٥٨.
١٢٥. نفسه، ج٦، ١٥٩-١٦٠.

١٢٦.نفسه، ج٦، ١٦١.

١٢٧.الجاحظ: الحيوان، ج٦، ١٦١.

١٢٨.نفسه، ج٦، ١٥٨.

١٢٩.نفسه، ج٦، ٢١٤.

١٣٠.نفسه، ج٦، ١٦٢.

١٣١.نفسه، ج٦، ٢٠٨.

١٣٢.نفسه، ج٦، ٢٠٩.

١٣٣.نفسه، ج٦، ٢١٠.

١٣٤.نفسه، ج٦، ٢١٧-٢١٨.

١٣٥.ابن منظور: لسان العرب، مادة (مسخ).

١٣٦.الجاحظ: الحيوان، ج٦، ٢٩٧.

١٣٧.نفسه، ج٦، ١٩٨.

١٣٨.نفسه، ج٤، ٣٨٧.

١٣٩.نفسه، ج٤، ٣٨٧.

١٤٠.نفسه، ج٣٧، ٢٨٧-٢٨٨.

١٤١.نفسه، ج٥، ٥٧٦.

١٤٢.نفسه، ج٢، ٣١٧.

١٤٣.نفسه، ج٤، .٣٦٩

١٤٤.نفسه، ج٧، .٨٧

١٤٥. نفسه، ج٧، ٤٤.

قائمة المصادر والمراجع

أوّلاً: المصادر:

١- أبو حيّان التوحيدي، علي بن محمد بن العباسي، ت نحو (٤٠٠هـ): الإمتاع والمؤانسة، ط١، تحقيق أحمد أمين وأحمد الدين، دار ومكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

٢- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، ت (٥٥ هـ): البيان والتبيين، ط٣، تحقيق علي بو مسلم، دار ومكتبة دار الهلال، بيروت، ١٩٩٢.

٣- ـــ، الحيوان، ط١، ج١+ج٢+ج٣+ ج٤+ج٥+ ج٦، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي وأولاده، القاهرة، ١٩٣٨.

٤- ـــ، الحيوان، ط١، ج٧+ج٨، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨.

٥- ـــ: رسالة فخر السودان علي البيضان، رسائل الجاحظ السياسية، ط٣، تحقيق علي بو ملحم، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٥.

٦- ـــ: كتاب القيان، رسائل الجاحظ، ط١، عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٥.

٧- ـــ: كتاب النساء، الرسائل الكلامية للجاحظ، ط٣، تحقيق علي بو ملحم، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٥.

٨- الخوارزمي، جمال الدين أبو بكر محمد بن العبّاسي، ت(٣٨٣هـ)، رسائل أبي بكر الخوارزمي، ط١، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، ١٨٧٩.

٩- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، ت(٣٤٦) هـ: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط١، تحقيق عبد الأمير مهنّا، منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، ١٩٩١.

١٠- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، ط١، ج٣، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨.

ثانياً: المراجع باللغة العربية:

١- حسن حسني: ثقافية الجنس أم ثنائية الفكر، الكتاب الأوّل، ط١، دار سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٣.

٢- جورجي زيدان: تاريخ التمدّن الإسلامي، ط٢، تحقيق حسين حسين مؤنس، دار الهلال، القاهرة، ١٩٥٨.

٣- سامي الكيالي: النفس الإنسانية في أدب الجاحظ، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١.

٤- سيد أبو العينين: حكايات الجواري في قصور الخلافة، ط١، دار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٨.

٥- سهير التلماوي: ألف ليلة وليلة، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦.

٦- سناء شعلان: السّرد الغرائبي والعجائبي في الرواية والقصة القصيرة في الأردن، ط١، وزارة الثقافة، عمّان، ٢٠٠٤.

٧- شوقي ضيف: العصر العباسي الأوّل، ط١، دار المعارف القاهرة، ١٩٨٢.

٨- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ط١، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٣.

٩- فيليب حتّي وآخرون: تاريخ العرب (مطوّل)، ج٢، ط٤، دار الكشّاف: بيروت، ١٩٦٥.

١٠- لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية، ط١، مكتبة لبنان ودار النهار، بيروت، ٢٠٠٢.

١١- محمد عويس: المجتمع العبّاسي من خلال كتابات الجاحظ، ط١، دار الثقافات، القاهرة، ١٩٧٧.

١٢- وديعة طه النجم: الجاحظ في المحاضرة العبّاسيّة، ط١، مطبعة الإرشاد بغداد، ١٩٦٥.

ثالثاً: المراجع المترجمة:

١- تزفيتان تودورف: مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة الصديق بو علاّم، ط١، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٤.

٢- ت.ي. ايتر: أدب الفنتازيا مدخل إلى الواقع، ترجمة صبار سعدون السعدون، ط١، دار المأمون، بغداد، ١٩٨٩.

٣- سيمون دوبوفوار: الجنس الآخر، ترجمة نخبة من الأساتذة الجامعيين، ط١، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، ١٩٦٥.

رابعاً: المراجع الانجليزية:

1- Rosemary, Jackson-Fantasy, The literacy of subversion, me thuen, London, 1981.

خامساً: الدوريات:

١- سعيد عبد الفتّاح عاشور: الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، عالم الفكر، مجلد ١١، عدد١، الكويت، ١٩٨٠.

٢- مطاع الصفدي: الجسد الذاتي، الفكر العربي المعاصر، ع٥٠-٥١، بيروت، آذار، ١٩٨٥.

٣- وديعة طه النجم، أضواء على منزلة المرأة في العصر العبّاسي، عالم الفكر، مجلد ١٨، عدد١، الكويت، ١٩٨٧.

سادساً: رسائل الماجستير:

١- سائدة أحمد سلام: المرأة في الأدب النثري في العراق، بإشراف محمود ابراهيم، الجامعة الأردنية، رسالة ماجستير، ١٩٨٨.

٢- ضياء عبد الله خميس الكعبي: صورة المرأة في السّرد العربي القديم، دراسة في كتب الجاحظ والأغاني والسير الشعبية العربية، بإشراف ابراهيم السعافين، رسالة ماجستير، الأردنية، ١٩٩٩.

٣- وضحا محمد عوّاد الحلاملة: صورة المرأة في شعر العصر العبّاسي الثاني في العراق، بإشراف عصمة غوشة، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٨.

Woman Image in Al-jahith's book " Book of Animals"

Sana'a Kamel Shalan
Unoccupied lecturer
Language center \ University of Jordan

The book tries to show the image of the woman in the book of animals by al-jahiz. And thus among an era where woman undertook social cultural and political roles in addition to her traditional roles. During this era full of data and contradictions. This research displays these images through the following points: the image of woman Eve, her image as a human being, her image as a maid, the wife, the mother, the sister, the daughter, the lustful, the beautiful, the crazy, the naieve, the smart, the child, the humble, the narrator of Hadeeth, the poet, the scholar, the queen, the political image for woman, the monstor and her image attached to animals.